(البحوث والدراسات)

الرؤى الفكريَّة والفنيَّة في شعر بدوي الجبل

(محمد سليمان الأحمد)[1]

١٩٠٤ - ١٩٨١

د. عبد الكريم الأشتر

- ١ -

ينتسب البدوي، ضمن صفات شعره الأسلوبية الخاصة، إلى شعراء حركة الإحياء من الاتباعيين «الكلاسيِّين» الجدد. يظل شعره، بمجموع خصائصه الفنيَّة، سليل تراثنا الشعري: فيه روحه، أعني: قوة الفكر الشعري فيه وتلبّسه بالوجدان، ووضوح صوره وحسيّتها. وفيه نسجه: متانة جملته وشفافيتها. وجهارة الصوت فيها، ومكان البيت من بناء القصيدة. وفي هذا كله الدليل (الذي يُؤيده تاريخ الرجل) على مخالطته العميقة لدواوين كبار شعراء العربية

(1) صلتي بالبدوي ذات منحى خاص، فقد عرفت ابنته جهينة، قريبًا من نهاية العقد الخامس من القرن الماضي. وما أزال أحتفظ بكلماته الحزينة التي تلقيتها منه، بعد وفاتها: «أبكتني رسالتك وأنا في حاجة إلى البكاء». وعرفت بعدها، في أواخر العقد السابع من القرن الماضي ابنة أخته «أُمامه»، فنقلتْ إليّ (وكانت واحدة من طالباتي المتميِّزات في الجامعة) ترجمة قصيرة لحياته الحافلة، أملاها هو نفسه عليها، مع صورة من قصيدته (ابتهالات) التي نظمها في مغتربه في سويسرة، وجاوزت، في تمامها، مئة بيت. والذي خلّفه هؤلاء الثلاثة في نفسي صورة أجد سِماتها الأولى في تكوين الأسرة جميعًا وتكوين البدوي، وألتقط ملامحها في خصائص شعره العامة: حرارة الاستجابة لوقع الأشياء، وقوة التعبير عنها وتميُّزه.

(المتنبي، أبو تمام، البحتري، أبو فراس، الشريف الرضي، المعري) ومخالطتِه مجموع تراثنا الأدبي، بعيدًا من تأثره بشعر اللغات الأخرى، إذ كان لا يعرفها.

ويلزم، في البداية، أن نستعيد أوسع خطوط حياة البدوي أثرًا في فهم رُؤاه الفكريَّة والفنيَّة، وراثةً واكتسابًا:

١- خصب التكوين الموروث، فالبيت الذي نشأ فيه معدود من بيوتات الشعر أصولاً وفروعًا. أبوه واحد من علماء العربية، درس البدوي عليه[٢] علوم العربية وأصول ثقافتها لغة وأدبًا، واتصل بالمكتبة القائمة في البيت، فطالع فيها شعر كبار شعراء العربية.

٢- طول التمرس بصياغة الشعر، ابتداءً من أول العقد الثاني من عمره.

٣- قوة الارتباط بهموم المرحلة التاريخية وأحداثها، وحمل تبعاتها الثقيلة: المنافي والسجون والمغتربات، والتخفّي عن العيون، والأسفار.

٤- قِيَم الثقافة العربية الإسلامية في البيت الذي نشأ فيه، النفسيةُ والاجتماعية والخُلُقية: قَبول التضحية، والإيثار، والحنان الدافق، والاعتزاز بالكرامة القومية والإنسانية، والسمو بالموهبة إلى حد الاعتداد، مع التمسك بالأصول.

وفيما يلي جِماع أهمّ ما أملاه هو نفسه على السيدة «أُمامة» ابنةِ أخته، ونقلته إليّ من وقائع حياته، نجيء به لأنه يحمل صوت نفسه. ونكتفي به عمّا نقرؤه في الكتب:

- وُلد سنة ١٩٠٥ في قرية ديفة (قرية هادئة على الساحل السوري).
- تُوفيت عنه والدته وهو رضيع.

---

(2) يُقال: درس على فلان.

قال الكسائي للأحفش: أولادي، أُحب أن يتأدبوا بك ويُخَرَّجوا على يديك.[المجلة].

– دخل المدارس الحكومية في اللاذقية ودمشق، وتقطَّعت دراسته في مكتب عنبر، لاشتراكه في حركات النضال السلبي المضاد للمحتل الفرنسي.

– التجأ في دمشق، مدة من الزمن، بعد انهيار الدولة العربية فيها، فاختبأ في بيت ناصيف أبي زيد ووجيه الكيلاني، فرّ بعدها إلى حماة فاعتُقل فيها.

– تنقَّل في سجون حمص وبيروت وقلعة أرواد. وحُكم عليه بالسجن خمسة عشر عامًا، قضى ثلاثة منها في السجن. ثم أُوقف التنفيذ لصغر سنه (كان في نحو الخامسة عشرة).

– بعد إلغاء المعاهدة السورية الفرنسية (١٩٣٩) فرّ إلى العراق، مع عدد من السياسيين، وبقي فيها سنتين.

– عاد سنة ١٩٤٢ (خلال الحرب العالمية الثانية) فاعتُقل في قلعة كَسَب.

– كان من مؤسّسي الحزب الوطني الذي خلَف الكُتلة الوطنية، ومثّل الحزب في الوزارة مرتين، ومرة ثالثة بصفته مستقلاً.

– سنة ١٩٥٠ ماتت ابنته جهينة، «فأبقتْ في نفسه، مع الغربة، أثرًا خلّف في شعره مسحة من الكآبة»، على حد تعبيره!

– سنة ١٩٥٥ فرّ ثانية من سورية، وبقي سبع سنوات مشرَّدًا في لبنان وتركية وأوربة.

– سنة ١٩٦٣ عاد إلى الوطن. وصدر، بعد أشهر من عودته، الأمر باعتقاله، وعُزل عزلاً مدنيًّا، وتوارى عن الأنظار. ثم غادر سورية إلى النمسا وسويسرة، فقضى فيهما عامًا كاملاً رجع بعده، حين أُلغي عنه العزل، وأُلغيت مذكرات التوقيف. صاغ خلال هذا العام قصائده (البلبل الغريب) في فيينا، و(حنين الغريب)، و(ابتهالات) في جنيف.

– أبوه فقيه عالم واسع الأفق، له دراسات أدبية وفقهية، وتفسير للزوميات لم يُطبع، وديوان شعر. وله صلات بكبار علماء العالم الإسلامي وكبار المستشرقين (زاره في بيته المستشرق ماسينيون، فصحَّح له الشيخ كثيرًا مما قال عن المسلمين).

– طبع ديوان البدوي سنة ١٩٢٤، فأهداه إلى يوسف العظمة. وسَلِمت منه نسخ قليلة، بعد أن صادره المحتل لأنه يحرّض على الثورة.

– ٢ –

أعمق سمات الصورة الشخصية التي تُستخلص من جِماع هذه الخطوط المكثَّفة –كما نرى – هو غَلَبة السمة الوجدانية غَلَبة مطلقة. نَفْسٌ بهذا الموروث الحي الذي تزيده الثقافة الأدبية حدّة، يتفتح وعيُها على اليتم والتشرد والتنقل في السجون، والاختفاء في المغتربات والمنافي، وتكتهل على فقد الولد، والدخول المتكرر في دورات النفي والتشرد في المغتربات، إلى أن تغادر الحياة على خوف وترقُّب. نفس بهذا الموروث الحي والمكتسب جميعًا، نستطيع أن نفهم جيدًا – ودعونا الآن مما تقول بعض مناهج النقد الحديثة من فصل النص عن صاحبه وموته عنه – ما انتشر في شعرها من صور الحزن والهمّ، حتى لنجدها تطغى بمعانيها على معاني الحياة، وتتلبَّس صورها الجميلة، وتختصر حقائقها وفضائلها، فتستحيلُ في النفوس، هي والخير، من معدِن واحد:

والخَير في الكون لو عَرَّيتَ جَوهَرَهُ رأيتَهُ أدمعًاحَرَّى وأحزانا

ويزهر الحزن فيها وينتشر ورده ويتلوّن، ويندى الصخر من مائه، ويروع حسنُه وبريقه:

إن قلبي خميلة تنبت الأحـ ـزان وردًا ونرجسًا وشقيقا

لو على الصخر نهلة من جراحي راح مخضوضل الظلال ورِيقا
همّيَ الهمّ لو تكشّف للنا س لأغرى حسنًا وراع بريقا

ويجعلها تروي نبعة الشعر عنده:

شاعرًا كنت عندما كان في مقلتي دموعْ!

* * *

والذي أريده من الوقوف الطويل عند هذه السمة هو استيعابها، في مداها الواسع، مفهومَ الشعر عنده، وأقصد هنا صنعة الشعر: فقد جعله استغراقُها جِماعَ تكوينه النفسي وأحداثِ حياته، قريبًا من الطبيعة قرب المخالطة الحيَّة، يتناولها غذاءً، كما يفعل الرومانسيون. وعزاءً. ويعيش عَبْر رؤاها حياته، ويشكل من مدادها صوره، وينفذ من خلالها، إلى ساحات التراث المترامية، القريبة والبعيدة، يستهدي طريقه إليها، خفية حينًا، وجهرة، في غير التجاء إلى الرمز حينًا. لا يجد في نفسه الفرصة في تأملها قدْر ما يجدها في مخالطتها، منذ بداية طريقه إلى نهايتها، حتى ليلتقط الصورة في الطريق إلى المكابدة، أو يجعلها في صلبها:

ألمّ، والليل قد أرخى ذوائبَه طيفٌ من الشام حيّانا فأحيانا
تُنضِّر الوردَ والريحانَ أدمعُنا وتسكب العطرَ والصهباءَ نجوانا

* * *

وللجياد صهيل في شكائمها تكاد تشربه الصحراء ألحانا

* * *

تعرفُ الراح أن دمعي سلاف وجفوني كؤوسها والدِّنانُ
لم أضق بالهموم ذرعاً وهل ضاق بشتى غصونِه البستانُ؟

والهموم الحسان تفعل في الأنف س ما تفعل الغواني الحِسان
سائلوا زحمة العواصف لما رَجَّت الأرض: أين كنا وكانوا؟
تحجل الخيل بالذليل إذا صا لت، ويشقى سرجٌ ويشكو عِنان!

* * *

وتطير النسور في ذُروة الـ نجم وفي عشّه البُغاثُ يطير
يشهد الله ما بقلبيَ حقد شفّ قلبي كما يشِفّ الغدير

* * *

إن مفهوم الفن الشعري عند البدوي يقرّبه من الأخذ بفلسفته عند الرومانسيين: بوح بما في النفس يجعله يلتمس العزاء في مخالطة الطبيعة وكائناتها، ويقرّبه من تلمُّس حركة الحياة فيها، وإنطاقِه صورَها بصوته الخاص الذي يمثّل الحزنُ والهمُّ أعذبَ نبراته، ويكوّن، في مجموع شعره، عمادَ رؤيته الجمالية نفوذًا في متلقيه، إلى جانب التشكيل اللغوي الموحي بقُدُراته المفطورة، القادرة، في أقصى حدود الصورة المشكلة بقصد تعميق الإحساس وتوسيعه، أن تَبقى قريبة من نفس المتلقي والتأثير فيها وحملِه على تصديقها.

وعند هذا التشكيل اللغوي يتجلَّى تكوين البدوي اللغوي المكين المتين بحيث تسهل جدًا دراسة خصائصه العامة. وقد عرفنا من ظروف نشأته وتكوينه الفكري والأدبي ما يقرّبنا من وصفها. وأقرب ما نقول فيها، قُرْبُها من لغة الكلاسيين الجدُد، من رؤوس حركة الإحياء في مراحلها الأخيرة: شوقي ومَن بعده، وعلى مثالهم أحيانًا، حتى ليذكّرنا، في بعض قصائده، بمقاطع محدَّدة من شعرهم (وصف الراقصين مثلاً عند بحيرة جنيف في شعر البدوي – ووصف الراقصين في قصر عابدين في شعر شوقي).

وفي الإمكان الآن أن نستخلص أبرز صفات شعره الأسلوبية توفيرًا لجماليات شعره: الاختيار المفطور للوحدات القوية في المواطن التي تستلزم القوة، والوحدات السهلة في المواطن الأخرى. تستغرقها جمل شعرية ساطعة الإيقاع، واضحة المقاصد، تجهر بما يريد أن يقوله في غير خفاء يستشعره المتلقي، حتى في مواطن اللجوء إلى الكناية وانزياحات المجاز في شتى صورها، بقصد الطعن والغمز أو بقصد السخرية:

يا وزيرًا يطلّ بعد وزير والعُلا في ركابه والزمانُ
رب نعمى تضيع منا إذا زُرْ تَ ولا ضجّةٌ ولا دَيْدَبان
وإذا فُتَّ أعينَ الناس دَلاًّ فلمن صاغ حسنَك الرحمن!
ولمن تُحشد الجموع؟ فهل زا رَ ولاياتِ مُلْكه الخاقان؟
لكمُ لا لقيصرٍ أو لكسرى رُصِّع التاج وازدهى الإيوان
وكفى هذه الرعيّةَ عزًّا أنها في رحابكم صنفانُ!

فهذا الذي جعل بعض النقاد يشكو الجهارة الخطابية والمباشرة والتقريرية في بعض شعره، بحيث يُضعِف ذلك من إحساسهم بالحيوية الفكرية فيه، فقد تسوقه الشكوى وتقليب صورها إلى استيفائها في جمل اسمية إخبارية متتابعة تتابعًا يستوفي بعض مقاطعها كاملة، في بعض القصائد. وقد يكون تفسير هذا النزوع يكمن في امتلاء النفس وتنازع صور الشكوى فيها، وعمق إحساسها بالحزن وثقل الهمّ.

على أنه حين يشتد انفعاله – ضمن جمله الإخبارية – تستغرقه الجمل المتوترة نداءً وأمرًا ونهيًا ومساءلة فيخفِّف ذلك من أثر النزوع إلى التقرير، وإن لم يخفِّف من سطوع معانيه ومباشرتها.

أما جمالية الإيقاع في شعره فموفورة وفْرة لا يخطئها السمع أبدًا. يوفِّرها له تكوينه المفطور الغنيّ بصور الإيقاع الشعري الموروث حسًّا وإبداعًا، في تكوين الجملة الشعرية واختيار وحداتها، وفي تذوق رنينها في فواصل البيت، وفي الأعاريض والضروب، وفي الرويّ وحروف قوافيه جميعًا: فالموسيقا، عنده، «ليست صناعة، ولكنها تنسكب من الطبيعة» هي «أساور وعقود، لا سلاسل وقيود»[٣]. هكذا تفيض أصداؤها في شعره:

أدموعًا تريدها أم رحيقا لا ونُعماك ما عرفت العقوقا
تتجلَّى عند المغيب لعينيَّ ضياءً عذب الحنان رفيقا
نم بعيني فقد فرشت لك الأحلام مخضلَّة الورود طريقا
إن قلبي خميلة تنبت الأحزان وردًا ونرجسًا وشقيقا
لو على الصخر نهلة من جراحي راح مخضوضل الظلال وريقا

* * *

ولعله لهذا، ولمعانٍ أخرى، لم يخطر له، كما لم يخطر للجواهري ولأبي ريشة معه، أن يقرُبوا من شعر التفعيلة، إن لم يكن عدّوه كما عدّه الأخير (أبو ريشة) من «غير شعر الفصحى»!

وقد تغريه نماذج تكتظ بها ذاكرته، من شعر التراث، في مواقف نفسيَّة متماثلة، فينسج على مثالها شعرًا ينظر إليها في اختيار قوافيه (النص الغائب)، فيُغْني النموذجان أحدهما الآخر، إحساسًا، من البدوي، بعمق جذوره وتماثل تجربته وغنى أصولها، على نحو ما نعرف في شعر المعارضات:

أنا ما عتبت على الصحا ب فليس في الدنيا صحاب

(3) يقول صديقه أكرم زعيتر: «إنه لم يدرس العروض» دراسة نظرية.

خرْس ولكن قد تفا صحت الخواتم والثياب
أنا كالمسافر لاح لي أيْك، وأغرتني قباب
وتفتحت حولي الريا ض الخُضْر واصطفق العُباب
ووثقت أن النهر مِلْ ـك يدي، ففاجأني السراب

فإلى جانبها نسمع صوت أبي فراس في مغتربه هو الآخر (في أرض الروم):

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه ومن أين للحرّ الكريم صحاب
وقد صار هذا الناس إلا أقلَّهم ذئابًا على أجسادهن ثياب

ونسمع صوت المتنبي في مثل قول البدوي:

وثغرها: آهاً على قبلة طهورة من ثغرها آها
تُلثمني ضاحكة كفّها يا ليتها تُلثمني فاها

وهكذا تتردد في أنفسنا، ونحن نقرأ شعره، أصداء قريبة من تراثنا الشعري، على مدى عصوره، معانيَ وصورًا وصياغات، على مثل قوله:

إذا انقصفت أسِنَّتنا وصلنا بأيدينا الأسنّة والصّفاحا

– ٤ –

لم تُتح للبدوي، كما رأينا، دراسة مستقرة، فتم تكوينه على ما درج عليه في نشأته، عن طريق المطالعة الذاتية، تغذيها حكمة التجربة والاختبار التي نطالع صورها في شعره، إذ غلبته أحداث حياته فبقي شعره يجول في منعطفاتها ومواقعها. إن أكثر ما بدت رؤاه الفكرية (التي غلب عليها، وعلى ثقافته، في جملتها، كما قلنا، العنصر الوجداني، وتغذيها صلته العميقة بالتراث) في اتجاهات شعره الوطنية والقومية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية والإنسانية العامة، في حدود ما يُنتظر

من مثله في ماضيه الحافل، وحاضر صلته به وبالأحداث والناس من حوله، على اختلاف المراحل السياسية وألوان سياسات رجالها.

على أن رؤاه الفكرية، في المواقف الإنسانية العامة، تظلُّ أحفلَها بصور الحزن ومعانيه، على نحو ما تبيّنا، تخالطها قيم سياسية واجتماعية وأخلاقية، يرتفع بها البدوي إلى أفق إنساني عام يتخطَّى فيه واقعه الخاص الضيق، زمانًا ومكانًا، وتوشحها صور الطبيعة من حوله. فالوفاء لأصحابه الذين افتقدهم على طول الطريق، فناجى قبورهم الصامتة وهو بعيد عنها، وأصغى لاصطخاب الطيور على مشارفها، وأحسَّ بلهفتها إليه، و«أراق قلبه على ثراها وأهدى إليها قصائده» كما أملى على أُمامة:

أين الشآم من البحيرة والمآذن والقباب
وقبور إخواني وما أبقى من السيف الضِّراب
الصامتات وللطيور على مشارفها اصطخاب
أشتاق أحضُنها وألثُمها، وللدمع انسكاب
تحنو الدموع على القبور فتورق الصُّمُّ الصِّلاب
ولها إلينا لهفة، ولطول غربتنا انتحاب

* * *

ومع الوفاء التواضع لمن يستأهله، والاعتداد لمن يظهر العظمة عنده، يصطنعه وقلبه، إذ يُمليه على نفسه، يتفطَّر ألمًا:

البِشْر عندي للعظيم إذا تكبّر لا العتاب
عندي له زهو يُدلّ على الكواكب واجتناب
يزهو الكريم وقلبه دامٍ تمزّقه الحراب

ويظلُّ الإيمان النقي جُنَّته التي تحميه، وجَنّته التي يلجأ إليها ويتحصَّن فيها: نَفَس صوفي يُشير إلى صفاء التكوين ويستبطن صوت رابعة العدوية:

أنا لا أرجّي غير جبار السماء ولا أهاب
بيني وبين الله، من ثقتي بلطف الله، باب
أبدًا ألوذ به، وتعرفني الأرائك والرحاب
يا ربِّ بابك لا يردّ اللائذين به حجاب
مفتاحه بيدي: يقين لا يُلمّ به ارتياب
ومحبة لك لا تُكدَّر بالرياء ولا تُشاب
وعبادة لا الحشر أملاها عليّ، ولا الحساب

وبهذا الصدق الساطع يستمسك ليحمي كرامته ويحفظ إباءه أن يَذِلَّ للئيم، أو ينحني لأحداث الزمان:

في غربة أنا والإبا ء المرّ والأدب اللُّباب
طَوْد أشمّ فكيف تر شُقني السهام ولا أُصاب
يخفى البُغاث فلا تُلِمُّ به، ولا يخفى العُقاب

* * *

ونفسي لو أنّ الجمر مَسّ إباءها على بشرها الريّان، لاحترق الجمر

* * *

كبريائي فوق النجوم ولولاها لما كنت بالنجوم خليقا

ولكنه، على هذا كله، لم يفتقد – وهو العميق الإحساس بما يَلقى –

إنسانيته، إذ احتفظ لها بحقها في الغضب والثأر والشماتة بمن أذلّ وطنه، وبالحقد الذي يغذّي تطلّعها إلى الانتقام منه. وأعلن هذا بمثل الحرارة التي عبّر بها عن تسامحه ولينه ومحبته، وباللغة نفسها:

آمنت بالحقد يُذكي من عزائمنا، وأبعد الله إشفاقًا وتَحنانا
إني لأشمت بالجبار يصرعه طاغٍ، ويُرهقه ظلمًا وطغيانا
لعله تبعث الأحزانُ رحمته فيصبح الوحش في بُرديه إنسانا
قل للأُلى استعبدوا الدنيا لسيفهمُ: مَن قسّم الناس أحرارًا وعِبدانا؟

وعلى هذا المثال يُخاطب المحتل الفرنسي بعد أن احتل الألمان باريس في الحرب العالمية الثانية، ويذكّره بما لقي منه، وبالقيم التي ادّعاها لنفسه:

سمعت باريس تشكو زهو فاتحها هلاّ تذكرتِ يا باريس شكوانا!
والخيل في المسجد المحزون جائلة على المصلّين أشياخًا وفتيانا
إذا انفجرتِ من العُدوان باكية فطالما سُمْتِنا بغيًا وعدوانا
عشرين عامًا شربنا الكأس مترعة من الأذى، فتملّيْ صِرْفها الآنا
ضغينة تتنزّى في جوانحنا ما كان أغناكمُ عنها وأغنانا!

وبمثل هذا الخطاب – ونحن نتحدث عن الجانب الإنساني من فكر الشاعر، ولهذا نُغفل الأسماء إذ نلتفت إلى معاني المواقف لا غير – خاطب الأفراد أيضًا، وبشَّرهم بالفناء وبزوال سلطانهم:

من أنت؟ عاصفة وتذهب مثلما انقشع الدخانُ!

وربط بهذا، في أنحاء شعره جميعًا، الدعوة إلى النهوض والوحدة، وقد ألحّ عليها في شعره إلحاح من يدرك حاجة أمته إليها، وبعْث الأمل في النفوس،

وتذكيرها بالماضي العظيم وكتائبه وفتوحه!

سألوني عن الغزاة فجاوبـ ـت: ليالٍ تمضي ونحن الدهور
لن يعيش الغازي وفي الأنفس الحقـ ـد عليه وفي القلوب السعير

ولكن صور الواقع الحزين تظلُّ تفرض نفسها[٤]، وإن لم يغب عنها وجه الأمل المرصود:

أنا حزن، شخص، يروح ويغدو ومسائي مع الأسى والبكورُ
أين مسرى البُراق والقدسُ والمهد وبيت مقدّس معمور؟
لم يُرتّل قرآن أحمد فيه ويُزار المبكى ويُتلى الزبور!

* * *

تهلهلتْ أمتي لما غدت أمَمًا وزُوّر الوطن المسلوب أوطانا

* * *

ما للسفينة لم تَرفع مراسيَها ألم تهيء لها الأقدار رُبانا
شقّي العواصف، والظلماء جارية: باسم الجزيرة مَجرانا ومَرسانا
ضمي الأعاريب من بدْوٍ ومن حَضَرٍ إني لألمح خلف الغيب طوفانا
يا من يُدلّ علينا في كتائبه نَظارِ تطلُعْ على الدنيا سرايانا

* * *

ثارات يعرب ظمأى في مراقدها تجاوزتها سُقاة الحيّ نِسيانا

(4) بعد الخامس من حزيران ١٩٦٧.

ألا دمٌ يتنزّى في سُلافتها أستغفر الثأر، بل جَفّت حميّانا
لا خالد الفتح يغزو الروم منتصرًا ولا المثنّى على رايات شيبانا

* * *

وبمثل هذا الزهو، بالماضي المجيد، زهوه – وهو الإنسان – بموهبته وخلود شعره:

الخالدان، ولا أعُدُّ الشـ ـمس، شعري والزمانُ

* * *

سوف يُملي التاريخ عنيَ ما يملي فتخزى بظلميَ الأوطانُ
يُنصِف العبقريَّ دهرٌ فسيا نَ وفى أصفياؤه أم خانوا

* * *

مُرْ أرنّح عِطفيك بالشعر من عيـ ـني وقلبي منمنمًا منسوقا
حَضَري الخيال إن ذكر المنـ ـبِت سمّى نجدًا وسمّى العقيقا

* * *

وأنا الذي غنّى الشآمَ فهزّها منه البيان العبقري المونِق

* * *

ويفتنه شعره، ويدركه فيه نزوعه الصوفي العميق، فيجعله يشهد من نار القدرة الإلهية ونورها أكثر مما شهد موسى في جبل الطور:

إن آنس النار بالوادي فقد شهدت عيني من اللهب القدسي نيرانا!

– ٥ –

ولسنا نحتاج إلى بيان قِيَمه الأخرى: في عمق المحبة وسَعتها، وتوشيح الوطن وأهله وقومه بحللها، وقيَمه الاجتماعية في نصرة المظلومين والمسحوقين[٥]، وكفّ يد الطغيان عن شعوب الأرض «فكل طاغية جبان»:

أنا أبكي لكل طاغ فما يستر إلا الضراعَة الطغيان

وانحيازه إلى الحفاظ على حرية الفكر والتعبير، والخروج بها إلى النور:

سبّة الدهر أن يُحاسب فكر في هواه، وأن يُغَلّ لسان
الضحى والشجاع حلفا كفاحٍ ما احتمى بالظلام إلا جبان

وتهديده بعض الأنظمة بغضْبة شعوبها، وإن ضحكت لهم ومَرَنت على الرضا بالهوان:

حسبوا ضحكة الشعوب ارتياحًا واللظى حين يضحك البركان
لا يُهين الشعوب إلا رضاها رضيَ الناس بالهوان فهانوا!

ويخاطب صاحب السلطة، فينعى عليه إغفاله حقائق الناس، واحتفاله بالمظاهر:

الفكر من صرعى هو اك ومن ضحاياك الحنانُ
ولك العبادة لا لغير ك والتشهّد والأذان

(5) من شعره:

كلما أنّ في الخيام شريد خجل القصر والفراش الوثير

ويُخاطب أرض الشام، فيجعلها هواه على مدى العمر:

هذا الأديم أبي وأمي والبداية والمآب
ووسائدي وقلائدي، ودُمى الطفولة والسِّخاب[٦]
الروح من غيب السماء ومنكَ قد نُسج الإهاب

وفيما مرّ ما يكفي للتمثيل عليها، في جملة شعره، وعلى غلاء ترابها وتراثها الحضاري وقيمها الروحية، وللتمثيل على ربطه الحاضر بالماضي وتوثيق صلته به، دون تشنُّج ولا أُحادية، فعناوين مجدها يحملها أبو حفص، ومروان، وخالد، والمثنّى، والأمويون، والرشيد، والمنصور، و«الظباء الأمويات» ومعهم جميعًا آل البيت.

– ٦ –

أعود فأقول: شعر البدوي صفحة ناصعة من ديوان حركة الإحياء (الكلاسِّيَّة الجديدة) في مراحلها الأخيرة، حين صاحبتها واختلطت بها حركة الشعر الوجداني (الرومانسية)، وإن بقيت تنفرد بسمْتها التراثي، قيَمًا ولغة ونهجًا في تصوير حركة الفكر والشعور، على نحو ما نجد عليه الحال في شعر الجواهري. وقد كان هذا، مع البدوي، يشكِّلان الحجة الباقية لهذا النهج الشعري الذي نهجته حركة الإحياء في نهايات القرن التاسع عشر، وانتهت به إلى العقود الأولى من القرن الماضي. ولو تأملنا حقائق الصنعة الشعرية في المفهومين اللذين بدأنا بهما الحديث (خلق الحياة في الألواح والصور، أو مخالطتها وعيشها بتمام

(6) القلادة.

حرارتها) تبادرت إلى أذهاننا حقائق الخلاف الذي شبَّ في العصر العباسي بين حركة عمود الشعر وحركة البديع. وأظنه يصلح أن يتلبَّس حقيقة الخلاف الذي ينطوي في حركات الصنعة الشعرية على مدى الحياة، وإن اختلفت الأسماء والمذاهب والمدارس.

في شعر البدوي، مهما يكن الرأي فيما نقول، قيم تراثنا الشعري، كما قلت، وتقاليده الفكرية والجمالية واللغوية: الوضوح، القرب من الحس، عدم الإغراق في المجردات، غزارة الماء (العاطفة)، الجزالة، الاستقامة في اللفظ وصياغة جمله، صحة المعاني، مراعاة عُرف اللغة، في الأغلب، في مجازها، وهو مذهب العرب، كما يقول نقَّادنا القدامى، في شعرها. وبهذا يمثِّل البدوي لقيم (الكلاسية الجديدة) الجمالية أقوى تمثيل. على أنّ هذا ينبغي ألا يلفِتنا عن قُدُراته الذاتية في تكوين لغته الخاصة التي يخفق فيها روحه الحار، ومعانيه، وصوره المبتدعة، ولفتاته الذهنية الباهرة، في مثل قوله مثلاً:

«قد هان حتى سمت عنه ضغينتنا»، وقوله:

ولو شئنا جزيناه، ونُرضي شمائلَنا فنوسِعه سَماحا!

* * *

وقوله:

جلّ شعري، أقيه بالروح من كـ ـل هوانٍ، والشعر كالعِرض يُوقى
وقبلكِ ما رأت عيني همومًا مُدلّلة وأحزانًا ملاحا

* * *

نكرِّر في الأخير ما قلناه ومثلّنا له، فقد أبقت فيه حياته ومعاناته الطويلة، دفقة غزيرة من الحزن، تظلُّ تلمع دموعًا في طيّات الأبيات. فمن هنا يكون

العنصر الوجداني هو أقوى عناصر صنعته الشعرية: تقريرًا وتصويرًا. وتظل جملته الشعرية المرهفة القوية، ورموزه القريبة وصوره الحسية، وإيقاعاته الساطعة، قادرة على نقل رؤاه الفكرية والشعورية التي عرضنا في الحديث لأمثلة كثيرة منها.

هو، في جملة واحدة، قبْسة ثمينة معاصرة من تراث الشعر العريق، تهيأ للبدوي أن يرقى، في كثير منه، إلى مراتب أولئك الفحول. وقد أمّدته حياته المضطربة وأحداثها الحزينة بزاد وجداني أرهفته ذكريات التاريخ العربي الإسلامي، فظلَّ مخزونها يتردد صداه في شتى المواقف التي وقفها.

* * *